التفكر في الكون وفي الإنسان

بين العبادة والعلم

بقلم

الدكتور مالك بدري

أستاذ علم النفس

بكلية العلوم الاجتماعية

التفكـــر كعبـــادة :

إن التفكر في مخلوقات الله لمن أعظم العبادات التي دعا إليها الإسلام فما أكثر الآيات القرآنية التي تحض على تدبر خلق السماوات والأرض بشتى الأساليب التي تناسب كل مزاج وحالة روحية، حتى لا تترك وسيلة تصل بها إلى كل من في قلبه بقية من حياة إلا وسلكتها. ذلك لتخرج الناس من بلادة الحس وهمود العادة وثقل الألفة ليروا آيات ربهم في السماوات والأرض ببصيرة حية وقلب شفاف.

بعض الأساليب القرآنية في الحض على التفكر :

يستجيش القرآن، في كثير من آياته، القلوب بتذكيرها بآلاء الله ونعمه فيكون التفكر والعبرة من خلال هذا الجو الحاني من صفات الرحمة الودودة:

« وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ »[1]

وتارة ينقلب الخطاب عنيفا مقرونا في بعض الأحيان بالتهديد والوعيد وهذه هي الآيات الموجهة لذوي القلوب القاسية الكافرة التي تحتاج لمثل هذا الأسلوب الصارم. وكثير من هذه الآيات يبدأ بالسؤال الاستنكاري «أولم يروا..؟» أو «أفلا ينظرون؟».

« أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ »[2]

---

(١) النحل . الآيتان ٦٥، ٦٦.

(٢) سبأ . الآية ٩

«أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾»(٣)

«أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾»(٤)

كما تأتي كثير من مثل هذه الآيات في ثنايا القصص القرآني وعلى لسان الأنبياء فعلى لسان نوح إلى كفار قومه يقول الحق جلّ وعلا:

« مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ »(٥)

وفي المقابل نجد طائفة ثالثة من الآيات يأتي الحض على التفكر فيها في صورة الثناء الودود على أولى الألباب الذين لا يرون في الوجود شيئا إلا وكان لهم فيه عبرة وتذكرة بالله ونعمه التي لا تحصى. فهؤلاء يذكرون الله في كل حالة من أحوالهم النفسية وفي كل وضع من أوضاعهم الجسمية:

« إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ »(٦)

كذلك يلفت القرآن النظر إلى تدبر آيات الله في الكون باستجاشة الناحية الجمالية الفطرية في الإنسان. ففي الآيات التاليات من سورة فاطر يلفت القرآن الكريم النظر، بطريقة تهز المشاعر لجمال الألوان والأصباغ المختلفة الظلال في الأرض وما فيها من جمادات ونباتات وحيوانات وبشر.

---

(٣) الغاشية . الآيات ١٧ الى ١٩

(٤) الأنبياء. الآية ٣٠

(٥) نوح . الآيات من ١٣ الى ١٦

(٦) آل عمران . الآيتان ١٩٠ ، ١٩١

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ »(٧)

ونجد كذلك أن الله تعالى بعدما يمتن على العباد بخلق الأنعام ليأكلوا وينتفعوا منها يقول أيضا:

« وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ »(٨)

ويقول:

« ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ »(٩)

ويعلق الأستاذ الشهيد سيد قطب بما فتح الله عليه في ظلاله في تفسير آية «الذي أحسن كل شيء خلقه...» بما يلي:-

«إن هذا الوجود جميل. وأن جماله لا ينفد. وإن الانسان ليرتقى في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ما حدود. قدر ما يريد. وفق ما يريده له مبدع الوجود. وان عنصر الجمال لمقصود قصدا في هذا الوجود. فاتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء، يصل الى حد الجمال. وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو، وفي كل خلق.. أنظر هذه النحلة. هذه الزهرة. هذه النجمة. هذا الليل. هذا الصبح. هذه الظلال. هذه السحب. هذه الموسيقى السارية في الوجود كله. هذا التناسق الذي لا عوج فيه ولا فطور!

انها رحلة ممتعة فى هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين، يلفتنا القرآن إليها لنتملاها، ونستمتع بها وهو يقول:

«الذي أحسن كل شيء خلقه»....

(٧) فاطر. الآيتان ٢٧ ، ٢٨

(٨) النحل. الآية ٦

(٩) السجدة. الآية ٧

فيوقظ القلب ليتتبع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير» (انتهى كلام الاستاذ قطب)[10].

على أن أهم ما يرفع من قدر التفكر أن الله تبارك وتعالى قد أقسم بذاته العظيمة ببعض من مخلوقاته. فهذه أكبر دعوة إلى النظر فيها وسبر أغوارها والتدبر في مكنوناتها: فالله يقسم بالضحى وبالفجر ويقسم بالشفق والقمر ويقسم بالتين والزيتون ويقسم بالصبح إذا تنفس وبالليل إذا سجى.

ولاشك أن هذه المكانة العالية التي اعطاها الإسلام لعبادة التفكر هي التي جعلت علماء وزهاد من أمثال الحسن البصري يقول «تفكر ساعة خير من قيام ليلة[11]» وأمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ليقرر بأن.. «الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.»[12].

حدود التفكـــر :

التفكر في خلق السموات والأرض وما يقع عليها من أحداث أمر لا يحده عائق من اختلاف الزمان ولا المكان ولا ماهية الأشياء. هي عبادة حرة طليقة حرية الادراك وانطلاق الخيال المؤمن. سياحة فكرية وجدانية تحيي القلوب وتنير البصائر عندما يعبر الذهن من آيات الله في الكون إلى خالقها ومدبرها، وهذا هو المعنى الحقيقي للاعتبار.

فمن ناحية تحرر التفكر من قيد الزمان والمكان فإن القرآن الكريم يحض عليه ابتداء من بداية الخلق:

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ »[13]

---

(١٠) سيد قطب في ظلال القرآن، الجزء الخامس، دار الشروق، الطبعة الخامسة ١٩٧٧ م، صفحة ٢٨٠٩.

(١١) الحافظ ابن كثير تفسير القرآن العظيم، المجلد الأول، دار المعرفة بيروت، ١٩٦٩، صفحة ٤٣٨.

(١٢) المصدر السابق

(١٣) العنكبوت ، الآية ٢٠

وكما يحض المؤمنين على التفكر في حاضرهم، يذكرهم أيضا بتدبر مصائر الأمم الغابرة التي طواها الزمن وحصد ديارها.

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً » (١٤)

وكما يأمرهم بالتدبر في الدنيا يدعوهم كذلك الى التفكر في الآخرة:

« كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (١٥)

ذلك بأن التفكر المحدود بالدنيا الفانية لا يكوّن إلا تصور مبتور للكون، ومفهوم مشوه لحقيقة الوجود الإنساني.

إذن فالمؤمن مأمور بالتدبر في خلق الله ابتداء من بداية الخلق الى الآخرة....

أما بالنسبة لحرية التدبر، بغض النظر عن ماهية الأشياء، نجد القرآن العظيم، كما يدعو الى النظر في مخلوقات الله الطبيعية التي لم تمتد اليها يد البشر كالسموات والجبال والبحار، يلفت أنظار المؤمنين كذلك الى ما أنعم به على الناس من مخترعات أنجزها علماء سخرهم الله لخدمة البشرية.

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (١٦)

ذلك بأن هذه المنجزات والاختراعات، وإن قام بها بشر، إلا أن الله عز وجل هو الذي أحاطهم بهذا العلم..

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » (١٧)

---

(١٤) الروم الآية ٩

(١٥) البقرة . الآيتان ٢١٩ ، ٢٢٠

(١٦) البقرة ، الآية ١٦٤ .

(١٧) البقرة ، آية الكرسي ٢٥٥

« وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴿٨٠﴾ »[18]

كذلك فان كل اختراع واكتشاف انساني لا يخرج عن سنن الله وقوانينه الطبيعية، بل هو في الحقيقة لا يعدو أن يكون توضيحا لعمق هذه السنن.

من أجل ذلك فقد نسب الحق تبارك وتعالى السفن الضخمة التي تمخر عباب البحار كالأعلام أو الجبال المتحركة، نسبها إلى ذاته العلية حين قال جل وعلا:

« وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ »[19]

فالسفن له تعالى وكذلك طائرات هذا الزمن وصواريخه وأقماره الصناعية وكلما صنع الإنسان واكتشف بأذنه عز وجل وفضله ورحمته بالناس كافة:

« رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ »[20]

ومن فتن هذا الزمان أن المؤمن قد ينسى موضوع الاعتبار بما يقدمه الإنسان الحديث من مخترعات. ذلك لأنها تأتيه من بلاد لا تؤمن بالإسلام ولا توحد الله عز وجل، في الوقت الذي يرى فيه عالمه الإسلامي قد انقلب الى مستهلك ضعيف لهذه المخترعات والخدمات العصرية. بل أنه ليرى وطنه الإسلامي وقد قُهر واستبيحت حرماته بفعل التكنولوجيا الحربية الحديثة لهذه الدول. وفي غمار هذه الأحاسيس والانفعالات قد يحدث انفصام في حس المؤمن المعاصر بين مخلوقات الله الطبيعية التي يرى فيها قدرة الله ورحمته ونعمه العظيمة وبين تكنولوجية المدنية الحديثة التى لا يستثير بعضها فيه إلا السيء من الاستجابات. وقد عمق دعاة الفكر الغربى والشرقى هذا الاتجاه فى بعض النفوس حتى أصبح الانفصام بين مخلوقات الله الطبعية ومخترعات الانسان الحديثة انفصاما بين العلم والدين.

---

(١٨) الأنبياء ، الآية ٨٠

(١٩) الرحمن ، الآية ٢٤

(٢٠) الاسراء ، الآية ٦٦

إن القلب الموصول بالله والتصور الصحيح للكون والانسان يعي بأن الكرة الأرضية ومن فيها وما فيها إن هي إلا ذرة تافهة في ملك الله الواسع. وإن الله خلق الانسان وما عملت يداه « وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ »[٢١] . وأن أوضاع العالم الإسلامي المهينة هي بسبب ما كسبته أيدي المسلمين من تنكر لمنهج الله في الأرض.

ولا ننسى أن نذكر في هذا المجال أن القرآن حينما لفت أنظار أهل مكة والمدينة وما حولها «للجوار المنشئات في البحر كالأعلام» كان ذلك في الوقت الذي كانت أكثر هذه السفن الضخمة بيد أناس لم يدخلوا بعد في دين الله. فلم يمنع ذلك المؤمنين من التفكر في آية من آيات الله سخرها على يد قوم كافرين. هذا الموضوع له أهمية كبيرة بالنسبة لدراسة المسلم للعلوم التجريبية بشكل عام والعلوم الانسانية وعلم النفس بشكل خاص. فهو يمثل أهم الأسس الإسلامية لدراسة علم النفس الحديث.

---

(٢١) الصافات ٩٦

التفكر في سنن الكون بين العلم التجريبي والدين :

إن كانت هذه هي المكانة العالية التي أعطاها الإسلام لعبادة التفكر في خلق الله فقد تعس وخاب من أغلق قلبه وسمعه وبصره وبصيرته عن آيات الله الواضحة التي تعرض عليه صباح مساء في صفحات الكون الناصعة.

« وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ »[22]

بل إن بعضا من هؤلاء الغافلين ليعرفون كثيرا من خبايا آيات الله في المادة والطاقة وفي علم الحياة. لكنهم لا يرتفعون بهذه المعرفة عن جوانبها الظاهرة السطحية. فلا ينقذون من بدائع الخلق الى خالقها ومدبرها:

« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ »[23]

وفي الحقيقة فان مشكلة العبور من الظواهر الكونية الى خالقها تمثل الفرق الأساسي بين العالم التجريبي المسلم وغير المسلم. ذلك بأن الخطوات الأولى في التفكر كعبادة، أو على الأقل التفكر في بيئة الانسان الخارجية، هي الملاحظة الواعية والمشاهدة الدقيقة بالحواس عن طريق السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وهذه هي بعينها الخطوة الأساسية التي تعتمدها الطريقة العلمية (Scientific Method) للوصول الى نتائجها المعتمدة، وإلى تصمياتها ونظرياتها.كما وأن الأدلة التي تقوم على الملاحظة الدقيقة عن طريق الحواس Empirical evidence هي الأدلة الوحيدة التي يقبلها العلم التجريبي. فالعلم التجريبي يبدأ إذن من الملاحظة والتدبر عن طريق الحواس ثم ينتقل الى التعميات والفرضيات فالتطبيقات ليرجع مرة أخرى للتأكد من صحة فرضياته بملاحظات ومشاهدات جديدة. وفي ذلك يشبه العالم... (Whitehead)[24] العلم التجريبي بالطائرة التي تقلع من أرض الملاحظة الصلبة لتطير في هواء التعميات والنظريات الرقيق ثم تهبط ثانية في أرض الملاحظة والتدبر بالحواس.

---

(٢٢) يوسف ، الآية ١٠٥

(٢٣) الروم ، الآية ٧

(٢٤) As quoted by L. Malpass, Human Behviour, MG Graw-Hill, 1966, p. 3.

وبالاضافة الى ذلك نجد ان تفكر المسلم في الكون وبحوث العالم التجريبي الحديث يتشابهان ولو ظاهريا في أن كليهما لا يفتش عن الأشياء المتفرقة التي لا صلة بينها، بل يستقصيان السنن والقوانين العامة الثابتة في خلق السماوات والأرض.

ذلك بأن الانسان بطبعه، بغض النظر عن إيمانه أو كفره، يمج الفوضى والغموض ويميل الى التنظيم والوضوح للمثيرات التي يتعرض لها صباح مساء فهو حتى بالنسبة للادراك الحسي البسيط للاشكال الناقصة أو الغامضة التي يراها في المختبر، نجده يقوم بطريقة تلقائية[٢٥] باكمال الفجوات حتى يصبح الشكل مألوفا كدائرة أو مثلث مثلا، أو رمزا آخر له معنى مألوف كعلم لأحد الأقطار أو شعار لجمعية معينة.

نفس الظاهرة، نراها فى إدراك الانسان وتفكره فيما تلتقطه جميع حواسه من سمع وشم وتذوق. كما نشاهدها فى العمليات العقلية العليا فى حل المشكلات وفى التجريد وتكوين المفاهيم. لذلك، عندما ينظر الانسان فى كون الله الواسع يفتش بفطرته على النواميس التى تنظم الظواهر المختلفة، ذلك حتى يستطيع التنبؤ بحدوثها فى إطار هذا الانتظام فيزول الغموض.

ومن أكثر ما يهز القلب المؤمن، تعرفه على خفايا هذه النواميس الالهية في دقيق صنع الله سواء كان ذلك في اكتشاف اللغة الكيمائية لنملة صغيرة أو التعرف على مدار جرم سماوي هائل.

ولعل هذه الفطرة التي أودعها الله جذر قلوب الرجال هي التي تجعل المتفكرين من علماء اليوم يتحدثون بلغة العباد، فنستمع الى عالم متخصص أمريكي مثل الدكتور سيسل هامان، أستاذ الطفيليات الحيوانية ليحدثنا عن طيور بالتيمور فيقول:

«وماذا عن عش طائر بالتيمور؟ من الذي علم هذا الطير ذلك الفن الرفيع؟ ولماذا

(٢٥) أنظر التجارب العديدة التي أجرتها مدرسة الجشطالت لتوضيح هذه الظاهرة عند الانسان.

تتشابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟ إذا قلت الغريزة فإن ذلك يعد مخرجاً من السؤال ولكنه إجابه قاصرة. فما الغرائز؟ يقول البعض انه السلوك الـذي لا يتعلمه الحيوان. أليس من المنطق أن نرى قدرة الله تتجلى في هذه الكائنات التي خلقها فسواها تبعاً لقوانين خاصة لا نكاد ندرى نحن كنهها عن شيئاً» (انتهى)[٢٦].

كما نقرأ الى المتفكرين من عبادنا في جيل الإسلام الأول ومن تبعهم من علمائنا الأقدمين فنجد فيما تركوا دقة ملاحظة علماء اليوم. فقد أثر عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال متفكراً في النملة:[٢٧]

«انظروا الى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، ولا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر.. كيف دبت على أرضها، وحثت على رزقها، تنقل الحبة الى جحرها، وتعدها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها. وفي ورودها ولصدورها ولا يحرمها الديان. ولو في الصخر اليابس والحجر الجامس. ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسلفها، وما في الجوف من شراشيف بطنها، وما في الرأس من عينها وآذانها لابصرت من خلقها عجبا، ولقيت من وصفها تعبا، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرته فاطر ,ولم يعنـه في خلقها قادر.

ثم استمع الى الزمخشرى وهو يكشف فى «كشافه»، بدقة العالم عن الحشرات التى لاتكاد ترى بالعين المجردة ويتنبأ بوجود الكائنات المجهرية ثم يختم ذلك بدعـاءٍ فيه مناجاة وطلب للمغفرة، يقول:[٢٨]

ربما رأيت فى تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحادّ إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواريها، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتهـا، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتهـا ويبصر بصرها ويطلع على ضميرها، ولعل فى خلقه ما هو أصغر منها وأصغر، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ـ وأنشدت لبعضهم:

---

(٢٦) مونس «الله يتجلى فى عصر العلم» فرانكلين للطباعة، القاهرة ١٩٥٨ ص. ١٤٠

(٢٧) الشرق الأوسط

(٢٨) تفسير الكشاف ، ص . ٢٦٥

يا من يرى مدّ البعـوض جناحها	فى ظلمـــة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطهـــا فى بحرها	والمخ فى تلك العظـــام النحل
اغفـــر لعبـــد تاب من فرطاته	ما كان منـــه فى الزمـــان الأول

وفي الحقيقة فان هذا الانتظام في الكون، الذي يسمح لنا بالتنبؤ باحداثه بدقة فائقة، هو من أهم الأدلة التي يستخدمها القرآن الكريم لاثبات حقيقة الحقائق.. إن لهذا الكون خالقا والها يمسكه وفي هذا يلجأ الوحي لاستثارة فطرة عقدها الله في جذر قلوب الناس، ألا وهي البحث عن هذه السنن والنواميس التي تنسق الكون:

« ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ » (٢٩)

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ » (٣٠)

إن ظاهرتي انتظام السنن الكونية هذه ومن ثم التنبؤ بها في ظل هذا التناسق الدقيق هما في الحقيقة حجرا الزاوية للطريقة العلمية الحديثة Scientific Method. ولا يقوم للعلم التجريبي صرح بدونهما.

لذلك، إن أخلص الباحث المسلم، فإنه سيجد أن دوافعه للبحث والدراسة والمكافأة التى سيحصل عليها تفوق كثيرا تلك التى يجدها زميله غير المسلم. فكلاهما ربما يحصل على المكافأة المادية والشهرة، وكلاهما قد يجد متعة فى التغلب على مشكلات البحث ولذة فى متابعة تخصصها الدقيق الذي اصبح هواية مثيرة... لكن الباحث المسلم الذي

(٢٩) سورة الأنعام: الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

(٣٠) سورة يس : الآيات ٣٨ الى ٤٠ .

يكتشف العلاقات الدقيقة فى الظواهر المادية أو البيولوجية أو النفسية الاجتماعية ويرى صنع الله وسننه من وراء ذلك، إنما يقوم بأرقى العبادات ويصدق فيه قول الله تبارك وتعالى: « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ »

وأن أخلص النية لله تعالى فإن نصبه وعرقه وهو يلاحظ ويتأمل ويتفكر في المختبر أو الميدان له فيه أجر عظيم، بخلاف زميله الذي لا يرجو ذلك من الله:

« إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ »(٣١)

وإذا توصل من خلال أبحاثه الى اختراع أو اكتشاف تستفيد منه البشرية فله في ذلك صدقة جارية يتفي' أجرها ما بقى على سطح الأرض منتفع بعمله.

إذن فأبحاث العالم المسلم عبادة تفكر وربما كان أيضا استجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلب العلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٣٢) ونتائج أبحاثه المفيدة صدقة جارية.

مـــراتب التفكـــر :

ولكن هل هناك درجات مختلفة للتفكر والتأمل يكون فى بعضها الأجر على قدر المشقة ؟ أعنى بذلك الفروق بين الأفراد والفروق بين خصائص الأشياء التى ينظر فيها المؤمن. الاجابة على هذا السؤال تكتنفها عوامل غامضة ومشـكلات لا قدرة للعقـل البشري على قياسها والاحاطة الشاملة بها. فهناك، كما يبدو لى، على الأقل أربعة أبعاد ومتغيرات متداخلة تكوّن هذا الاطار. عمق الفكرة والتدبر يعتمد أولا وقبل كل شئ على درجة إيمان الشخص وصلته بالله. وهذا أمر ذاتى لا يعلمه إلا الله ثم صاحب القلب

(٣١) النساء . الآية ١٠٤

(٣٢) سنن ابن ماجه

المؤمن. فكلما ازداد إيمان المسلم كلما سهل عليه الاستغراق في ملكوت ربه واستجاشة أنبل مشاعر الخشية والحب. والأمر الثاني يتعلق بخصائص المؤمن وبيئته. فبعض سمات شخصية الفرد كقدرته الفطرية على التركيز والتي تعتمد بدورها على خصائص الجهاز العصبي الذي وهبه الله إياه لها تأثيرها المعروف في هذا الميدان. أما الجوانب البيئية فمنها درجة خلو الذهن من المشكلات اليومية والمتاعب النفسية وغيرها من العوامل التي لا حصر لها.

أما العامل الثالث فيعتمد على مدى معرفة الشخص بخصائص الشيء الذي يتدبر خلقه. فكل انسان في هذا الوجود يجد فيما حوله عبر وآيات بقدر معرفته وعلمه فيما يتأمله. فأنا انظر الى السماء وأتأمل جمالها الساحر واتساعها واعجب بكواكبها ونجومها المتلألئة. والمؤمن المتخصص في علم الفلك ينظر الى السماء فيرى فيها ما تراه عيناه ومالا تراه. يرى في النجوم اللامعة المتناثرة بلايين الشموس الملتهبة التي تقذف بحممها في فضاء الله الواسع، ويرى في اتساع السماء ملايين المجرات التي تبعد عنا بملايين السنين الضوئية فإن كنا على درجة واحدة من الإيمان والتركيز الذهني وحضور القلب فسيصل هو الى درجة أعلى منا بكثير في عمق تفكره.

والأمر الرابع هو ماهية الشيء وخصائصه موضع التدبر وإعمال الفكر. فقد تحدثنا من قبل عن سهولة تفكر الانسان بشكل عام في مخلوقات الله الطبيعية كالجبال والأنهار والغابات بالمقارنة لتدبره مخترعات الانسان وربطها بنعم اللـه. ذلك لأن المخترعات الاصطناعية تحتاج منا إلى درجة أكبر من التجريد بالمقارنة للأشياء الطبيعية التي لم تمسها يد الانسان. بل إن هناك ظواهر طبيعية تستثير تلقائيا الفكر والمشاعر وتهز الكيان النفسي والروحي للإنسان وتفرض نفسها فرضا على قلبه وفكره. فوميض البرق وقصف الرعد وهطول الأمطار وزمجرة الرياح لها في النفس الانسانية وقع خاص يأتي فيه التفكر دون جهد مرتبطا بانفعالات الخشية والرجاء:

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ »(٣٣)

(٣٣) الرعد : الآية ١٢ .

وفي المقابل هناك بعض الظواهر التي يصعب تدبرها إما لكونها موغلة في التجريد أو لأن العقل البشري لا يستطيع بطبيعته تصورها والإحاطة بها لأن بعضها غير مادي ولا يخضع لقيد الزمان والمكان الذي لا يستطيع العقل تخطيمها، كذلك قد يصعب تدبرها لشدة الفتها!!

ولا يستغرب القاري' أن تكون الألفة الشديدة والتعود عائقا للتفكر في الشي' وتدبره. فالتكرار الرتيب يفقد أعظم ظواهر هذا الكون روعتها وعظمتها، وإلا فكيف لا تهتز مشاعرنا لرؤية الشروق كل صباح بما فيه من الآيات البينات، وكيف لا تمتلي' أنفسنا بالخشوع ونحن نستعرض، صباحا ومساء، الخلائق التي تعمر أرضنا من نباتات وحيوانات وطيور في جو السماء وأسماك في البحار والأنهار.

وكلما ازدادت الألفة نمت كثافة غشاوة التعود على أبصارنا حتى ننسى وجود أهم الأشياء بالنسبة لنا. فلعل حجاب التعود هذا هو الذي أعاق الانسان من التفكر في أهم كائن على وجه الأرض، لأنه أكثر شي' ألفه بالنسبة له، ألا وهو الانسان ذاته بلحمه ودمه ونفسه التي بين جنبيه. فلقد استطاع الانسان خلال العصور المتعاقبة أن ينظر في كل شي' حوله وأن يطور علوم الأرض والزراعة والكيمياء والفلك ووسائل الانتقال والانتاج وفنون الحرب وغيرها من الميادين... لكن علوم الانسان بقيت متخلفة تخلفا واضحا. وان استطاع الانسان الحديث أن يعوض بعض ما فاته في ميدان دراسات الانسان المادية والبيولوجية، إلا أن علوم الانسان النفسية والاجتماعية مازالت في تخلف نسبي كبير.

الإسلام يحض الإنسان على التفكر في نفسه :

إن جهل الانسان بنفسه وإهماله التدبر في أمرها ودراستها يعتبر من منطلق إسلامي، اهمال كبير ونسيان لواحد من أعظم آيات الله في الكون. فإذا كان الإسلام يحث على التفكر في السماء والبحار والجبال والأنهار ويدعو الى تدبر ما صنعته يد الانسان من مخترعات تنفع الناس وتيسر لهم خشن الحياة، فما بالك بتفكر الانسان في خلق الانسان.... الانسان الذي أسجد الله له ملائكته وسخر له ما في السماوات والأرض:

«وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾» (٣٤)

من أجل ذلك، فان القرآن الكريم، مع ما فيه من آيات عامة كثيرة تحض على تدبر خلق السموات والأرض، التي يعتبر الانسان أهم مخلوق فيها، فإنه يفرده فوق ذلك بنصوص كثيرة خاصة به. وكما ذكرنا من قبل، فإن القرآن العظيم يستخدم كل وسيلة ليوقظ القلوب من همود الحس وتخدير الالفه لترى آيات ربها في السموات والأرض بقلوب حية وبصيرة مستنيرة. كذلك، نجد في موضوع الانسان، أن آيات الكتاب تتبع نفس الأساليب التي تناسب كل قلب وتوائم كل حالة نفسية.

فمن ناحية تفصيل خلق الإنسان وربط ذلك بكرم الله عليه ومنّه ورحمته يقول الحق تبارك وتعالى في آيات «سورة المؤمنون» المفصلة المعجزة:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾» (٣٥)

ويقول في موضع آخر:

«قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾» (٣٦)

أما أغلاط القلوب والمستكبرين فيوجه القرآن لهم نفس الأسئلة الاستنكارية التي قدمنا أمثلة منها من قبل:

«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾» (٣٧)

---

(٣٤) الجاثية . الآية ١٣ .

(٣٥) المؤمنون . الآيات ١٢ الى ١٤

(٣٦) الملك . الآية ٢٣

(٣٧) يس . الآية ٧٧

«أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾» (٣٨)

أما في استجاشة الناحية الجمالية الفطرية فيقول الله تبارك وتعالى:

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ » (٣٩)

ويقـــول :

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ » (٤٠)

وكما أقسم الرحمن عز وجل ببعض آياته الكونية ومخلوقاته فى الأرض كالضحى والليل والشمس والتين والزيتون فاعتبرنا ذلك أعظم دعاية للتفكر فيها، كذلك أقسم الحق تبارك وتعالى بالنفس الانسانية، مرة فى ثنايا آياته الكونية وأخرى مقرونا بيوم القيامة فرفع من قدرها أيما رفعة. ففى مطلع سورة القيامة يأتي هذا القسم الجليل من فاطر النفس الإنسانية ومالك يوم الدين:

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ » (٤١)

وفي سورة «الشمس» يأتي القسم الالهي بتسوية النفس الانسانية والهامها بعد جولة سريعة خاطفة في الكون يقسم فيها الحق جل وعلا بالشمس والقمر والنهار والليل وبناء السماء وطحو الأرض:

(٣٨) المرسلات . الآيات ٢٠ الى ٢٤
(٣٩) التين . الآية ٤
(٤٠) التغابن . الآية ٣
(٤١) القيامة. الآيات من ١ الى ٤

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ »[٤٢]

كذلك أقسم الحق تبارك وتعالى بجوانب أخرى تخص الإنسان. ففي سورة قصيرة وافية شاملة أقسم عز وجل بالفترة الزمنية التي يقضيها الإنسان على وجه الأرض[٤٣] والتي، رغم قصرها، يرفع الانسان بعد انقضائها الى عليين أو يحط في سجين:

« وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ »

كما أقسم الله بذاته الكريمة على صدق القرآن ممثلا ذلك باحدى أهم خصائص الانسان: ألا وهي قدرته على النطق والكلام:

« فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝ »[٤٤]

هذه إذن بعض الأمثلة القرآنية التي تحض الانسان على التفكر في نفسه وفي الحقيقة أنه لو لم يكن في الوجود شيء يدل على روعة خلقة الله واعجازه في الكون سوى الانسان لكفاه واعظا وعبرة ولذل عنقه لله خاضعا. فما حقيقة النفس الانسانية وما الروح وما العقل؟ كلها مخلوقات لا يستطيع العقل البشري ادراكها والاحاطة بها فهي، وإن كانت من مكونات الانسان التي بها صار انسانا، إلا أنها ليست مادية ولا يمكن حصرها بين فكي الزمان والمكان اللذين لا قدرة للعقل البشري على الادراك خارج نطاقهما. فهذا في حد ذاته أكبر تحد يدعو الانسان للتواضع والاذعان: أن يعجز عن إدراك بعض مكونات نفسه والاحاطة بها...

(٤٢) الشمس . الآيات من ٧ الى ١٠

(٤٣) ابن كثير ، المصدر السابق ، الجزء الرابع صفحة ٥٤٧ .

(٤٤) الذاريات ، الآية ٢٣ .

وحتى العوامل السيكولوجية «السلوكية» الأكثر بساطة والتي يمكن ملاحظة آثارها في المختبر كالتعلم والتذكر والانفعال والدوافع، مازال علم النفس وهو يدرسها يخطو على شواطيء بحرها اللانهائي، كطفل يلهو على ساحل محيط

بل حتى النواحي المادية البيولوجية الملموسة، لو قضى البشر بقضهم وقضيضهم، كل حياتهم يتدبرون ويدرسون آيات الله في جسم الانسان لما تعرفوا إلا على قدر تافه منها. وكما سنبين بتفضيل أكبر في الفصل التالي عن بيولوجية الانسان، فإن الدماغ البشري ما زال أكثر شيء غموضا فى كون الله الواسع على الرغم مما وصل اليه إنسان العصر الحاضر. وعليه فستبقى آية الله القرآنية:

« وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ »(٤٥)

ستبقى جديدة متحدية كيوم أنزلت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولعله من المفيد أن ننقل للقاريء بعض خواطر الأستاذ سيد قطب حول هذه الآية:

«وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟» هذا الانسان هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الايمان وحين يحرم نعمة اليقين.

انه عجيبة في تكوينه الجسماني: في أسرار هذا الجسد. عجيبة في تكوينه الروحي: في أسرار هذه النفس. وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه وهو يمثل عناصر هذا الكون.

وتزعم أنك جرم صغير ** وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الانسان يتأمل نفسه التقى باسرار تدهش وتحير. تكوين أعضائه وتوزيعها. وظائفها وطريقة ادائها لهذه الوظائف...

---

(٤٥) الذاريات . الآية ٢١

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة... ادراكه للمدركات وطريقة ادراكها وحفظها وتذكرها. هذه الصور المختزنة. أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تستدعي فتجيء.. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى. فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر..

.. ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه. خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص، وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين فأين تكمن تلك الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها الى طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدق تمثيل، تنتهي الى إعادة هذا الكائن الانساني العجيب؟»(٤٦) (انتهى).

لقد ذكرنا من قبل أن عمق التفكر كعبادة وكمدخل للعلم يعتمد على أربعة عوامل، منها معرفة الباحث المؤمن بخصائص الشيء الذي يدرسه. على ذلك فعلى الدارس المسلم، بل على كل مسلم يريد أن يتعرف على آيات الله في خلق الانسان، عليه أن يزداد معرفة بعلوم الانسان الحديثة. ولاشك أن البحث العلمي، قد أماط لنا اللثام عن كثير من آيات الله فى الكون وفى خلق الانسان مصداقا لقول الله تبارك وتعالى:

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾»(٤٧).

واقرأ بهذه المناسبة وما ذكره عالم أمريكي معاصر، هو الدكتور تسيل رئيس قسم الحيوان بجامعة سان فرنسيسكو يقول:

«أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية...

(٤٦) الاستاذ سيد قطب، المصدر السابق ، الجزء السادس، ص ٣٣٧٩ ـ ٨٠

(٤٧) سورة فصلت . الآية ٥٣ .

ولقد منّ الخالق على جيلنا وبارك جهودنا العلمية بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة، وصار من الواجب على كل انسان، سواء أكان من المشتغلين بالعلوم «Science» أم غير المشتغلين بها، أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية في تدعيم ايمانه بالله[٤٨]» (انتهى).

إذن فعلى طالب العلم المسلم الذي اختار التخصص في علوم الانسان أن يدرس، بوعي الباحث المؤمن، كلما قدمه العلم الحديث في هذا المجال. وسيجد علم النفس في مقدمة هذه الميادين. ولاشك أن دراسة سلوك الانسان وربطها بسنن الله الاجتماعية والمادية الجسمية والروحية لهو من أعظم ما يمكن أن يدركه عالم مسلم. فما قدمه لنا علماؤنا الأوائل من أمثال الغزالي وابن تيمية وابن القيم والحارث المحاسبي وابن خلدون وأشكالهم من الباحثين العلماء الدعاة، كان بسبب اطلاعهم على علوم زمانهم النفسية والانسانية، التي كانت جزءا من الفلسفة، وربطهم للمفيد الصحيح منها بالإسلام.

العلوم الحديثة المهتمة بدراسة السلوك الإنساني:

ما هي هذه العلوم التي اتخذت الانسان محورا لتخصصاتها؟ انها فروع كثيرة متشابكة ليس لدينا بالطبع مجال لتفصيل الحديث عنها في هذه المقدمة المختصرة. فموضوعنا الأساسي هو علم النفس. غير أنه من الممكن حصرها للتبسيط في ثلاثة ميادين عامة لا تخرج بنا عن موضوعنا الأساسي. ذلك بأن المفهوم الشائع لمكونات السلوك الإنساني في علم النفس الحديث تنحصر في ثلاثة ميادين هي البيولوجية والنفسية السيكولوجية والاجتماعية الحضارية. والسلوك حسب المفهوم النفسي الحديث هو أي نشاط بيولوجي أو نفسي أو اجتماعي يقوم به الكائن الحي من أجل التكيف مع بيئته، سواء كان هذا التكيف صحيا أو مرضيا.

فالميدان الأول إذن يحوي العلوم البيولوجية والبيوكيمائية كعلم التشريح (Anatomy) والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) (Physiology) وعلم الوراثة

(٤٨) جون مونسما ونخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨ م.، ص ٢٦، ٢٧.

(Genetics) وعلم الأجنه (Embryology) وعلم الأعصاب (Neorology) والبيوكيمياء وغيرها من فروع بيولوجية الانسان الدقيقة الموغلة في التخصص.

والميدانان الآخران يختصان بالنواحي النفسية والاجتماعية والثقافية الحضارية للانسان. كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية.

وهناك ميدان رابع هام يختلف عن سابقيه من حيث أنه حقل نظري، فهو وإن لم يكن من العلوم الحديثة، إلا أنه الأب الشرعي لها. له أهمية خاصة بالنسبة لعلوم الانسان بشكل عام والجوانب النفسية والاجتماعية منها بشكل خاص ذلك لأنه يوجهها وينظمها ويعطيها الخلفية الفكرية النظرية والافتراضات والمبادئ والمبررات التي تقوم عليها، وينظم الى حد كبير علاقتها بالعلوم الأخرى. ذلك هو ميدان الفلسفة. فالخلفية الفلسفية للعلوم الانسانية بشكل عام وعلم النفس الذي يهمنا في هذه الدراسة بشكل خاص، هي التي تحدد الاطار المعلن والمستتر لمفهوم الانسان وطبيعته والتصور المؤمل لبناء الانسان الجديد على ضوء هذه العلوم. ويؤثر عن ديكارت أنه شبه الفلسفة بجذع الشجرة التي يتكون ساقها من العلوم الطبيعية وفروعها من العلوم الأخرى(٤٩).

وعلى الرغم من أن هذه «الجذوع» الفلسفية ليست فى ذاتها حقائق علمية وقد لا يكون لها سند من البحوث التجريبية، لانها فى الغالب لا تعدو أن تكون وجهة نظر صاغتها التصورات العقائدية والسياسية والاجتماعية السائدة فى البيئة، إلا أنها كثيرا ما تكون أكثر أثرا على المجتمع حتى من نتائج العلوم التجريبية ذاتها ذلك لأنها بالاضافة الى إعطاء هذه البحوث خلفيتها الفكرية، تقوم كذلك بعرض نتائجها من خلال تصوراتها الخاصة كما تساعد فوق هذا وذاك فى صياغة النظريات التى تنبنى على هذه الأبحاث التجريبية. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك الآثار البعيدة المدى على الاتجاهات العلمية وعلى المجتمع الغربي بشكل عام للجوانب الفلسفية والفكرية لنظرية دارون بالمقارنة للنتائج الفعلية لأبحاثه .

(٤٩) دكتور مقداد يالجن، «التربية الأخلاقية الإسلامية»، مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٧٧ م.، ص (٢٣).

لذلك كان من واجب الدارس المسلم، خصوصا في ميدان الدراسات النفسية أن يدقق النظر في «جذوع» شجرة العلوم الانسانية هذه، فسيجد أن كثيرا من مبادئها الفلسفية تقوم على مفاهيم المجتمع الغربي المادية، أما بشكل واضح سافر أو بطريقة مغلفة ملتوية. كذلك، سوف يكتشف أن هذه الاتجاهات الفكرية قد انبثقت عنها شتى الممارسات والتطبيقات النفسية المخالفة للإسلام وشريعته السمحاء.

فإذا أراد طالب العلم أن تكون دراسته لعلم النفس الحديث إسلامية المنهج وأن يكون بحثه تفكرا وعمله التطبيقي صدقة نافعة، فعليه أن يميز الخبيث من الطيب وأن يزيل الفاسد من «الجذوع» الفكرية وما نبت منها من فروع وأغصان مريضة وأن يربط بعد ذلك نتائج الأبحاث والدراسات النفسية بخلفياتها الإسلامية. عندئذ سوف تزكو الثمار وتصبح «الشجرة» طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء من أجل ذلك وجب على الدارس تمحيص طبيعة الإنسان في علم النفس الحديث من ناحية إسلامية من الزوايا العامة الثلاث: البيولوجية والنفسية الاجتماعية والفكرية الفلسفية والدينية.

ولا يعني تصنيفنا الثلاثي هذا أن هذه الميادين العامة، ولا حتى تخصصاتها الدقيقة، قد «اقتسمت» الإنسان بشكل محدد جازم وذهب كل علم بما أخذ. ! فالإنسان، حتى في مجال الدراسات الحديثة، كل متكامل، لا يتضح عمق أي جانب عام من نشاطه إلا إذا درس التفاعل بين الجوانب البيولوجية البيوكيميائية مع العوامل النفسية الاجتماعية وذلك في إطار مفهوم ما لطبيعة الإنسان. بل إن هذا التداخل المعرفي ينطبق حتى على الفروع الدقيقة المتخصصة في إطار كل ميدان وبين الفروع العلمية المختلفة في شتى الميادين التي تدرس الإنسان فنجد فروعا كعلم تشريح الأعصاب (Neuroanatomy) الذي يجمع بين التشريح وعلم الأعصاب. وعلم النفس الفسيولوجي الذي يجمع بين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء ومثل ذلك علم النفس الوراثي وعلم النفس الاجتماعي وغيرها من الفروع التي تجمع أكثر من تخصص واحد.

كذلك يجب ألا يتبادر الى ذهن الباحث المسلم عندما يدرس الإنسان نفسيا من خلال

هذه الزوايا الثلاث، أنه يشت عن موضوعه الأساسى أو يتوسع بلا هدف. ذلك بأن المدخل الإسلامى لأى علم يفرض على الباحث توسعا تمليه طبيعة الإسلام كعقيدة وشريعة وأسلوب للحياة. فالإسلام، كما هو معروف، يختلف عن الأديان والنحل التى تحصر جل اهتمامها فى الجانب الشعائرى للعبادة والوصايا والقواعد الأخلاقية بمفهومها الضيق.

والناحية الثانية الهامة التي تملي هذا التوسع هي طبيعة علم النفس. فهو ميدان متشعب الفروع يدخل في كل علم ونشاط إنساني. فتعريفه الدارج على أساس الدراسة العلمية لسلوك الكائن الحي، يزج به في كل نشاط اجتماعي وبيولوجي نفسي للكائن الإنساني.

فهذا الاتساع في فروع علم النفس يجعل الاخصائيين النفسانيين يعملون في مجالات تبدو لأول وهلة وكأنها لا صلة بينها. فالإخصائي في علم النفس الاجتماعي مثلا قد يكون أقرب في تخصصه وأبحاثه الى المتخصص في علم الاجتماع من زميله النفساني المتخصص في علم النفس الفسيولوجي. فإخصائي علم النفس الاجتماعي يتحدث نفس «اللغة» التي يفهمها اخصائيو علم الاجتماع وربما ينشر مقالاته وأبحاثه المتخصصة في مجالات علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية. هذا على خلاف زميله متخصص علم النفس الفسيولوجي الذي يجد نفسه أقرب الى المتخصصين في علم الفسيولوجيا والوراثة وغيرها من علوم الأحياء. وربما بنشر دراساته في دورياتهم العلمية. ويجد كلا هذين المتخصصين صعوبة جمة في فهم دقائق أبحاثها رغم اشتراكهما في ميدان واحد هو علم النفس.

لذلك نجد الكليات والمعاهد الجامعية المختلفة تركز تركيزا خاصا على مختلف ميادين علم النفس كل حسب تخصصه. كعلم النفس التربوي وعلم نفس الطفل في كليات التربية وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس الصناعي في كليات العلوم الاجتماعية وعلم النفس الجنائي في كليات القانون وعلم النفس العسكري في الكليات العسكرية وعلم

النفس المرضي والعلاج النفسي وعلم النفس الطبي في كليات الطب وعلم النفس الوراثي والفسيولوجي في كليات العلوم وهلم جرا.

وكلما استحدث الإنسان فرعا جديدا من المعرفة كلما أسس علم النفس لنفسه تخصصا جديدا فيه. ولعل أحدث هذه التخصصات هو علم النفس الفضائي (Space Psychology) الذي يدرس سلوك رواد الفضاء في حالات انعدام الوزن والوحدة الطويلة في كبسولات الفضاء وغيرها من النشاطات الفضائية.